

إبراهيم ونصر الله
بسم الأمّ والابن





يعد هذا الديوان القصيدة العربية إلى
الناس على مستويين، الأول لأنه يفتح
بابا عريضا مشرعا على جانب خفي
حميم ومهمش من حياتهم، عبر رصد
حياة أم بسيطة وأب بسيط، وطبيعة
العلاقة بينهما، وهما هنا والدة ووالد
الشاعر، هذه العلاقة التي تبدو مع ما
يشبهها من علاقات وأنماط، جانبها مهلا
ومقصيا وخارج اهتمام الشعر، أما
المستوى الثاني فإنه يتمثل في إعادة الشعر
نفسه للبشر، بعيدا عن التهويم والأوهام
التي غربت كثيرا من الأعمال الشعرية
العربية في العقدين الماضيين.

وإذا كان موت الأب يلعب هنا دورا في
إعادة فتح أسئلة الوجود، فإن أسئلة الأم
تفتح جراح الأحاسيس المغيبة، التي يتم
التعامل معها كما لو انها غير موجودة،
وأسئلة منى امتد عمره نصف قرن.

أهمية هذا العمل الشعري أنه يعود
ليمحو الصورة المختزلة حتى حدود
التجريد، لخلق الله البسطاء الطيبين،
وليدكرنا أن لهم جهنم وشغفهم
وعذاباتهم وأسرارهم، التي يتبعها برفق
هذا الديوان الذي قد يكون أول ديوان
يكرس بأكمله لتلمس شخصية الأم من
الداخل.

بِسْمِ الْأَمْرِ وَالْأَبْنِ

بِسْمِ الْأُمِّ وَالْأَبِينِ / شعر عربيّ
إبراهيم نصر الله
الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :

بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص. ب : ٥٤٦٠ - ١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص. ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١

E - mail : mkayyali @ nets. com. jo

تصميم الغلاف والإشراف الفني :

سكايب®

لوحة الغلاف :

إبراهيم نصر الله

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.



إبراهيم بن نصر الله

بسم الأئمّ والابن



إلى أمي .. ومنها ، إلى أبي ..

له حُلْمٌ من رغيْفٍ ويومٌ من الصخرِ
هذا أبي

مُتخَنٌ بريا ح الصبا ح
ومشْتعلٌ بالمحبةُ

من قصيدة قديمة

بِسْمِ اللّٰهِ



حديثها عن عرسها

من بعيدٍ سمعتُ خطاك

عرفتك من بينهم

حين جاءوا إلينا مساءً

وفي إثرهم شمسهم

من بعيدٍ عرفتك

قلتُ لقلبي كلاماً كثيراً

ومرجحتهُ في شحوبِ الظلامِ

وفي صمتِ خيمتنا الداكنةُ

كنتُ أضحكُ تنهرني عتمةُ

ثم تصرخُ أمي اجلسي ساكنةً

....

وقدمتُ شاياً لهم

فلمحتك

كيف تصببَ برّذ على جبهتي

وعروقي ليس بها غيرُ سيلٍ من النارِ يجري.

وكيفَ وقفتُ أمامكِ ثانيتينِ

وأدركتُ أنني نهرٌ وأنكَ بحري.

قلتُ : قد جاءني زمنٌ

سوف أرتاحُ فيه

من الحزنِ

والليلِ

والتعبِ

وفي يومِ عُرسِي قلتُ لأهلي

: هو الآن أهلي

وقلتُ لأُمي

: هو الآن أُمي .. أخي .. وأبي

ليس في دمعتي الآن شيءٌ سوى أنك الآن مُتَّ

ويتمتَ يا سندي سُحبي

ليس في دمعتي الآن شيءٌ

سوى

أنها عتبي

في حديثها عن يومها

في دروبِ الحصى
للجبالِ صعدا
نفتشُ عن نصفِ جُحْرِ
لنستَرِ عرساً تفتَّحَ في ساحةٍ للبكاءِ
انتعلتُ حذاءً من الجيشِ
ثوبَ السَّوادِ
الذي لم يكن هكذا
مُذُ عرفتُ صبايَ هنالكَ بين النساءِ
على الرأسِ صُرَّةٌ حَبِرِ

لِحَافٍ
وَفَرَشَةٌ صُوفٍ أَتَيْتُ بِهَا
حِينَ قَالَ أَبِي : سَوْفَ تَكْفِيكَ
حَتَّى عُبُورِ الشِّتَاءِ
وَإِذَا أَتَوْا بِالْخِيَامِ أَبِي أَنْ تُظِلَّهُ خِيْمَةٌ
قَالَ : أَرْحَمُ مِنْهَا الْعِرَاءُ

فِي دُرُوبِ الْحِجَارَةِ
نَبَحْتُ عَنْ نَصْفِ جُحْرِ
لَأُصْبِحَ زَوْجَكَ
تُصْبِحُ زَوْجِي
هَذَا الْمَسَاءُ !
صُرَّتِي أَصْبَحْتُ تَحْتَ إِبْطِي
وَخَلْفِي يَجْرِي الْعَوَاءُ

كنتَ تجري أمامي

ويجري

على

ظهركَ

الماءُ

من قربةِ الماءِ

كلُّ هذا الشقاءِ ولكنني قد تبسَّمتُ

ثمَّ

ابتدأتُ الغناءَ !

قلتَ لي يومَها : هل جُننتِ ؟!

ولكننا فرحينِ سعدنا

كأنا سنزرعُ أبناءنا في الأعالي

هناك

قربَ السماءِ

في حديثها عن غربتها

في الطريقِ إلى (غورِ نمرين) *
كانتُ أفاعي رماديةً تعبرُ الدربَ
ما بين بيَّارتينِ
لتأوي إلى شجرِ الموزِ عند احتراقِ الظهيرةِ
ولم يكن الرملُ غيرَ لهيبِ
كأنَّ الحياةَ انتهتُ وكأنَّا
نعيشُ هنا اللحظاتِ الأخيرةِ
على كتفكِ أثارُ المغارةِ
نصفُ (خريطةِ) قمحِ

وبعضُ رَغيفٍ تَبَسَّ
قلتَ سنخَبزُ حينَ نصيرُ هناكَ
ولكنني لم أقل لكَ أني نسيْتُ الخَميرَةَ

في الطريقِ إلى (غورِ نمرين)
كنا نُفتِّشُ عن رِيحَةِ الأهلِ في كلِّ شيءٍ نراهُ
وعن كِلِمَةٍ كِلِمَتَيْنِ إذا ما التقينا بهم
لنبلَّ الشِّفاهُ

وعن خَبِرٍ عن بلادِ
وعن عَتَمٍ هذا الرحيلِ الطويلِ
وعن سرِّ معناهُ
سألتُ : أكنتُ انتظرتُكَ أكثرَ من رحمةِ اللهِ

كي يغضبَ اللهُ
أستغفرُ اللهُ

ما الذي سوف نفعله غير هذا الذي نحن فيه
لكسبِ رضا

في الطريقِ إلى (غور نمرين)

تحتَ هيبِ جهنمَ

كان عذابي صلاةً

إثنان ،

بجري لنحمي ثالثنا .. وفلاةً

وسمعتك تضحكُ

- قد جاء دورك -

حين سألتك

: ماذا سندعوه

قلت : اطمئني

فلا نملكُ الآن غير اسمه وليالي منفاة

في الطريقِ إلى (غور نمرين)
مرّ الربيعُ بنا بعد عامٍ
وعشنا طويلاً
ولكنني لم أقلُ - مرةً - إن هذي حياةُ

• قرية صغيرة في منطقة الأغوار ..

في حديثي حول أمثالها

الجارُّ قبلَ الدارِ

قالتُ :

ليت لي داراً

ولي جاراً

لكي أمضي وأطلبَ صاعَ قمحٍ

أو ظللاً من كرومِ التينِ

الإبنُ نصفُ البيتِ ،

قالتُ :

ليت لي ابناً أخاويه هنا
في صمتِ هذا البرِّ
أهتفُ باسمه
وأسرُّ هامسةً له بعضي ليرحمي الحنينُ

لا ..

وحدتي ليستُ عبادةً عابدي
في ليلِ هذي الأرضِ
قالتُ :

ليت لي شجراً لأصعدهُ
وأبلغَ روحَ أمي فيه
قامتها

وأكسرَ عتمةَ الأيامِ والقمرِ الحزينِ

لو كَانَ فِي هذِي السَّمَاءِ هِنَا اِشْتِيَاقٌ لِلسَّهَاءِ
لِكَانَ غَيْمٌ قَبْلَ ذَلِكَ
ثُمَّ قَالَتْ :

هَآ أَنَا بَثْرٌ عَمِيقٌ مِنْ دَمَوْعِ الشُّوْقِ
تَمْلُؤُهُ عَيُونُ الرَّاحِلِينَ

لَمْ يَبْقَ مِنْ كَرَمِي سِوَى حَطَبٍ
وَأَسْمَاءٍ أُعِدَّتْهَا عَلَى مَهَلٍ
كَأَنِّي سَوْفَ أَنْسَاهَا وَتَنْسَانِي
وَنُنْسِي بَعْدَ حِينٍ

أَعْمَى غَرِيبُ الدَّارِ
خَلْفَ عَيُونِهِ طَرَقَاتُهُ
وَيَسِيرٌ لَا نَجْمٌ سِيرَشُدُّ خَطْوَهُ فِي التِّيهِ

أو تَهْدِيهِ زَهْرَةَ يَاسْمِينُ

الْخَيْلُ أَعْلَمُ بِالصَّهِيلِ وَبِالدَّرُوبِ

وَبِالْغَنَاءِ إِذَا تَبَعَثَ

فَوْقَ صَحْرَاءِ الْغُرُوبِ

وَبِالْجَبِينِ إِذَا تَنَاطَرَ كَالطَّحِينِ

وَالْخَيْلُ أَعْلَمُ ..

كَيْفَ أُمْسِي نَخْلَةً

وَأَفِيقُ عِنْدَ الصَّبْحِ

لَا أَرْضاً هُنَا تَحْتِي

كَأَنِّي نَصْفُ طِينٍ !!

في حديثها عن دمناء

فرسانٌ سودٌ
لا يعرفهم عبداً أو معبوداً
جاءوا في الليلِ الغامضِ كغموضِ الأشلاءِ
سحبوا من تحت ضلوعي الأرضِ
ومن فوقِي أغطيةَ الربِّ
سماءٌ بعدَ سماءِ
فرسانٌ هبوا كالإعصارِ
اقتلعوا أوتادَ خيامي
ومضوا تحجبهم سحبُ النارِ

فرسانٌ هبطوا من ..
لا أدري من أين
اقتلعوا ماءَ النبعِ الأزرقِ ..
بخناجرهم هبطوا اجتزوا (رأسَ العينِ)
فرسانٌ

فوقَ ظهورِ خيولٍ لا تصهلُ
ليس لها أعناقٌ ليس لها أقدامُ
هبطوا واقتلعوا النومَ المتعبَ في الأجنافِ
اقتلعوا الربَّ النَّائمَ في عينيِّ الطفلِ وأحلامِ الغزلانِ
فرسانٌ فوقَ خيولٍ سودٍ كالهذيانِ

... ..

من تلك الليلةِ يا ولدي
ينفرطُ العمرُ على مهلٍ
وورائي تجري السنواتُ

حُمَى فِي الْقَلْبِ
وَرَجَعَ عَوِيلٌ فِي الْفُلُوتِ
وَبِكَاءٌ لِلنَّبْعِ الْمَيْتِ تَحْتَ النُّجُومِ

من تلك الليلة يا ولدي
يأتي الفرسانُ
من كل مكان
يرتجُّ القلبُ لمرآهمُ
وتحفُّ عروقُ الحيوانِ
فرسانُ
فوقَ خيولٍ سودِ
كالهذيانِ
ما أنزلهم ربُّ في دمنا المسفوحِ
بل الشيطان

في حديثها عن حلمه

كان يهمسُ لي

: إن هذي المنافي ..

كما الحزنِ تمضي

وكان يقولُ

: إنها غيمةٌ وتزولُ

ويهمسُ

: إنك أجملُ من أن تعيشي بعيداً

بلا وطنٍ طيبٍ وخيولُ

.. لم أطوّف هنالك في أيّ أرضٍ
لأعرفَ معنى الرحيلِ
وأظماً عندَ الوصولِ
ولم أصلِ البحرَ أكثرَ من مرتينِ
فقد كان لي في التلالِ سماءٌ
وكانت فصولُ
ركضتُ إلى جانبِ الغيمِ حتى
سبقتُ السهولُ !!
وعدتُ وفي إثرِ خطوي ضباغٌ
وعشرونَ غولُ !!
ويضحكُ ، كنتُ صبيّاً ،
ولم أكُ أعرفُ أني سأكبرُ خارجَ حُلُمي
وروحي ستغدو رياحاً وجسمي طُلولُ

كان يهمس لي
: إن هذي المنافي
كما الحزن تمضي
وكان يقول
: إنها غيمةٌ وتزولُ

- كيف تعرفنا الأرضُ من غيره
قلُّ ..
ولو ..
كَلِمَةً وبحقِّ الرسولِ

في حديثها عن غيابه

ترايُك ناداك

من لا يلي نداءً ترايه؟!
ولا شيءَ فينا هنا قد تبقى
سوى الرملِ ياسندي وعذايه

ترايُك ناداك

ها نصفُ جسمي فيه
أسمعه الآن
يتلو عليك تسايحَ أمطاره وسحايه؟

عرفتُ ترابكَ قبلَ ترابي
وإنْ غرَّبتُ هذه الرِّيحُ رُوحِي
وبعثتِ القمَحَ في لونِ عِينِكَ
صوتَ حنيني ورجعَ جوابهُ

ترابكُ ناداكِ
ماذا هنا فيه غيرُ غريبينِ
نعدو ونعدو
ولا أفقَ للبرِّ غيرَ ذئابيه!

كُبرتَ على تلةٍ من نخيلِ
وتحتَ ترابِكِ كانَ الترابُ
نقيًّا كما الماءِ
يجري

ونجري معاً

في ثيابه

ونعرفه حين يورقُ فينا

ونعرفه تحتَ وطءِ عذابه

ونعرفه في عواصفِ كانونٍ

نعرفه في اشتعالاتِ آبه

ترابك ناداك

أنتَ الذي كنتَ سرّاً اخضراري

وسرّاً غيابيه

وكنتَ له في ضياعِ المعاني

سطورَ كتابيه

وكنتَ له الناسَ والبحرَ فيّ

وعودَ الشتاءِ

وهذا الهواء الذي كلما مرَّ
تحت نوافذِ بيتي يرقُّ
ويغمرُ حزني ندىً بعتابه

ترابُك ناداك
ياليتني كنتُ كلَّ الترابِ
وعشبَ هضابيه
مفاتيحه وذراعيِّ بابيه

ترابك ناداك
من لا يلبي نداء ترابه؟!!!

في حديثها عن أبيها

قبل أن يتزوج جدي من جدتي
بثمانين عاماً ..

أبي كان يملك سبع قوافل
فيها خيولٌ وفيها جمالٌ !!
يُسَيِّرُهَا بين أرضِ الحجازِ
ومرج ابنِ عامر - قلبِ الشمالِ
عليها يُحمَلُ قمحاً وتمرّاً
ونصفَ سماءٍ
وبرَّ خيالٍ

قبل أن يتزوج جدي من جدتي
أبتي ..

كان يعرف من سيكون
وقد قال لي إنها قصة
لا يُصدّقها أحدٌ ههنا الآن
لكنها في البلاد هناك لها عاشقون

قبل أن يتزوج جدي من جدتي
بثلاثين عاماً

أبي كان يملك حقل شعير على رأس نخلة
ويزرعُه مثلما شاءت الطيرُ قمحاً .. وقطناً
ويحرثُه لا بثورٍ عظيمٍ
ولكن بنملة !
من هنالك يوماً رأى أمّه

قالَ : هذي أُمي
وكانت أَمامَ البَناتِ تطيرُ
على رأسها جدولٌ
وطيورٌ
وأشجارٌ سروٍ
وفي صدرها فرسٌ
راحَ يصرخُ : أَيَّةُ فُلَّةٌ !!
.. وما خلفها كان يعدو حصانٌ
نزلتُ
من الحقلِ
كي أسألَ الناسَ عن إسمِهِ ..
ولأعرفَ أصلَهُ
عرفتُ ..
فغافلتُهُ

وانسلتُ إلى صُلْبِهِ كالحياةِ
وأصبحتُ ظلَّهُ
حيثما تتوجهُ أمي أنا فيه
حتى أتى يومُ عُرْسِهِ
رقصتُ وغنيتُ أكثرَ من أمه وأبيه !!
أنا إبْنُهُ
سرُّ أسرارِ نَفْسِهِ

قبل أن يتزوجَ جدي من جدتي
بنهارٍ
وسبعِ سنينَ
وخمسِ ليالٍ
أبي كانَ في قلبِ حُلْمِهِمَا فارساً
وله في طريقِ الجنوبِ كواكبُ

تعرفه في الظلام البهيم
وسبعُ قوافلَ فيها خيولٌ وفيها جمالٌ !!
يُسَيِّرُها بين أرضِ الحجازِ
ومرجِ ابنِ عامرٍ - قلبِ الشمالِ
عليها يُحَمَلُ قمحاً
وتمراً
ونصفَ سماءٍ
وبرَّ خيالٍ

في حديثها عن حبها

وكيف أقولُ أحبُّكَ في آخرِ الليلِ
حينَ تعودُ إليَّ
على كتفِكَ نهارًا ثقيلًا
وشمسٌ مطاردةٌ بالسَّوادِ

وكيف أقولُ أحبُّكَ
لا الوقتُ وقتي
لأعبرَ صمتي
ولا نحنُ عُذنا لأرضِ البلادِ !!

وكيف أقولُ أحبك
أولادنا نائمونَ نعمُ
وما خلفَ شبا كنا من عبادُ

قطعنا الطريقَ إلى روحنا حافيينِ
كدمعٍ عزيزٍ تجمّع في حدقاتِ الجيادِ
ومضى عمرُنا لنهاياتهِ
قبلَ أن يتفتحَ فيّ مساءً وأهمسُ
: إني أحبُّ حياتي لأنك فيها
وإن خباتٍ مقلتايَ ثلاثةَ أرباعِ ما في الفؤادِ
.. فكيف أقولُ بأني أحبك
هادئةً

مثل غفوةِ أطفالنا
والزمانِ البعيدِ الذي ظلَّ في الروحِ ساكنُ

ومثل الصباح الذي يتفتح في حَوْشِ بيتك
سراً

ويصعدُ قبل انتشارِ الجنودِ سطوحَ المساكنُ

في آخرِ الليلِ حينَ تعودُ إليَّ

أحبُّكَ دونَ كلامٍ

وتعرفُ ذلكَ

ها حَوْشُ بيتي نظيفٌ

غسيلي نظيفٌ

وظلي أخضرٌ فوق وجوه بنيك

وصحنُ طعامِك - في عزِّ كانون - ساخنُ

في حديثي عن غرفتها

غرفة

لا تطلُّ على مشهدٍ واسعٍ

أو أحدُ

في الليالي ستنهضُ

تبحثُ في قسَماتِ أبنائنا هنا عن بلدٍ

سوف يُقنعُها بقليلٍ من الحبِّ

أن لها شرفة

وتُطلُّ على قمرٍ خالدٍ كالأبدِ

غرفة

كلما أغلقتُ بابها تعباً
أبصرتُ في الصباح وليداً جديداً إلى جنبنا
ستحِنُّ علينا
وتنزلُ مثل السَّلامِ على كتفيَّ أمنا

غرفة

تتراكضُ في الريحِ تجمَعُ أضلاعنا
وتسيرُ بنا
لطفولتنا ههنا لك خارجَ أشلائنا
غرفةً من صفيحٍ
وتحرسنا
من شتاءِ المنافي الذي يتجولُ في الطرقاتِ
ويقصِفُ أعمارَ أعمارنا

غرفة

سترّد الرياح وأمطار آذار

تمضي بنا نحو أحلامنا

وتُسِرُّ لنا أنها أختنا

من عروقِ أبيننا أطلّت

ومن ساعدي أمنا

غرفة في المخيم

هب الرصاص

فعلشنا

وماتت فداءً لنا

في حديثها مع زوجها

أن تربي ولدُ

ههنا

دونَ شمسٍ

ودون بلدُ

أن تربيهِ دون سماءٍ

ودونَ جداولِ ماءٍ

ودون طفولةٍ

إنها مستحيلةٌ

أن تربيه من دون مُهْرٍ
وسرّو
ومن دون جُمَيْزَةٍ وحكايا ظليلة
إنها مستحيلة

أن تربيه من دون صبح
ودون ديوكٍ تصيحُ على السّطح
دون ضُحَى يتجولُ في الناسِ
دون ظلالٍ هنا في الظهيرة
ولا شيءٍ غيرَ ليالٍ طويلة
إنها مستحيلة

أن تربيه من دون أُغْنِيَةٍ
أن تربيه من دون عُرسٍ

ودون بكاءٍ على روحِهِ
إذ يُكفّنُ وَسَطَ الظلامِ قَتِيلَهُ
إنها مستحيلَة

أن تربيه من دون حَبِزٍ
ومن دون زيتٍ وزيتونَةٍ
وتُعلِّمُهُ أن يعيشَ
ليحرسَ أحلامَهُ كُلَّها وصهيلَهُ
إنها مستحيلَة

أن تربيه في زمنِ البُورِ
دون اخضرارٍ يهبُ
ويُحيي جنادِبَهُ .. جريَهُ خلفَها ..
وشقائقَ نعمانِهِ .. وسهولَهُ

أن تربيته ما بين فكيّ رصاصٍ
وتحرّسه من أن يُذريه أو أن يطولهُ
إنها مستحيلة !

غير أنك ربيتهم بشراً
وقطعت بهم دون أن ينحنوا ، لحظةً ،
أرضَ هذي المنافي الذليلة

في حديثها عن وداعه صباحاً

.. وصدري أحقُّ بكَ الآنَ من هذه الريحِ
من قمرِ ذائبِ في الضبابِ الرماديِّ
صدري أحقُّ بكَ الآنَ من عتمةِ الطرقاتِ
وهذا الصباحِ الغريبِ
ومن برْدِ كانونَ
صدري أحقُّ بكَ الآنَ من لقمةِ الخبزِ!
من كلِّ شيءٍ بعيدٍ هنالك عن عتباتي
وعن كلماتي
وصميتي

وبيتي أحقُّ بك الآن من عتمة في العراءِ
تُحاصرُ بيَتي

وكفِّي أحق بلمسةِ كفك
وجهي أحق بوجهك
واسمك ذاك الذي يفتِّحُ مثل الدعاءِ صباحاً
أحقُّ بصوتي
ولكنها الشمسُ
تلك التي لا تُطلُّ علينا .. عليك

تنادي

فتتبعها

... ..

ساعدي يتلمسُ وحدتهُ
وهو يبحثُ عنك
ووجهي يُجمَعُ حنطتهُ

وينادي عليك
وحُلْمي يُغالبُ غربتهُ
وهو يسعى إليك
لأنك من دون خَلْقِ إلهي كنت الأرق
فلم تجرح الوردَ في سُمرتي
ولا قمرَ الله في جبهتي
ولا ذلك الامتدادَ النحيلَ
الذي يتمايلُ في نخلي

ريحُ كانونَ بالبابِ
تقتلعُ الآن قلبي
وتنفخُ في رئتي
وأنا أتلمسُ في ظلمةِ الفجرِ خوفاً
وحرقةً تلويحتي

وأرددُ :

صدري أحقُّ بك الآن من هذه الرياحِ

صدري أحقُّ

لأنك من دون خَلْقِ إلهيَ

منذُ عرفتُكَ

كنتَ الأرقَّ

في حديثها عن انتظاره مساء

ولا يعرف الوقتُ أني هنا في انتظارك
لا يعرف الناسُ ذلك
لا يعرف البابُ
لا توتةُ الدارِ تعرفُ
لا حَوْشُ بيتك يعرفُ
لا حوضُ نعناعنا في الظلامِ
ولا ما وراءَ الغيومِ هنالكُ
وقلبي عليكُ
عليَّ

على عشرة يكبرون هنا في الغياب
ولا يعرفون بذلك
وقلبي على الدرب
دربك في الليل
خطوك في وحل غربتنا
وعلى حال تلك البلاد
وحالك

ألملم جسمي بعد المساء
كما تجمع الرياح حفنة رمل وتودعها في الزوايا
وأرتق روعي
بأن أتذكر وجهك
عيناي متعبتان
وضوء السقيفة حالك

وعتبةُ بيتي هنا تتعثرُ
عبادُ شمسي
وزوجُ الحمامِ
صياحُ الديوكِ الذي ما ارتوى
من نهارِ عيونكَ أو من جمالكُ

لماذا تأخرتَ هذا المساءَ
الرياحُ تئنُّ
وتحتَ سمائي ترنُّ
الخطى في البعيدِ
وتنأى
كأنَّ الشوارعَ تَجْمَعُ ما فوقها من أناسٍ
وتنثرهم
ثم تَجْمَعهم

ثم تنثرهم
كلُّ من تحت هذي السماواتِ هالكُ
ليسَ لي غيرُ كفِّكَ
قمحِكَ ..

في ليلة الغرباء الطويلة
لا تلتقي نجمةً نجمةً
وتَضِيعُ المسالكُ
تأخرتَ أكثرَ مما انتظرتُكَ
قلبي عليك
يُشَرِّقُ حيناً وحيناً يُغَرِّبُ
يَقْطَعُ بالخوفِ هذي الليالي
ويجري
وما خلفه الآن تجري وتجري إلى مطلعِ الفجرِ
أمُّ عِيَالِكَ

في حديثي عنها ١

: من أنا؟!!

سألتُ.

قلتُ : أُمِّي

بكتُ

: ثم ماذا؟!!

!!

!!

كبرنا هنا تحتَ شمسِ سراييةِ

كَبُرَتْ أَمْنَا لِحِظَةً لِحِظَةً مَعْنَا
وَكَبُرْنَا وَلَمْ نَنْتَبِهْ أَنَّهَا مِثْلُنَا
وَلَهَا مِنْ يَدَيْهَا نَصِيبٌ كَمَا لِلغَسِيلِ
وَكُنْسِ المِغَارَةِ وَالبَيْتِ إِذْ يَتَبَدَّلُ كُلُّ ثَمَانِي سَنِينَ
وَلَهَا مِنْ أَصَابِعِهَا غَيْرُ طَعْمِ بَقَايَا العَجِينِ

وَلَمْ نَنْتَبِهْ أَنَّهَا مِثْلُنَا

وَلَهَا فِي الطَّرِيقِ إِلَى السُّوقِ عَمْرٌ تَقْلُبُهُ
وَيُقَلَّبُهَا وَهِيَ تَسْأَلُ عَنْ وَجْهِهَا
وَعُرُوقِ يَدَيْهَا .. تَجَاعِدُهَا
مِثْلَمَا سَوْفَ تَسْأَلُ عَنْ سَعْرِ كِيلُو البَطَاطَا
وَتَجْفَلُ حِينَ يَفَاجِئُهَا بَائِعٌ وَهِيَ تَسْأَلُ
عَنْ ثَمَنِ البَرْتَقَالِ

: كان أيا منا يُشترى بالشُّوال!!
هكذا سوف تهمسُ ساهمةً
بينَ حُمى الإجابة حين تهبُّ
وفقرِ السُّوال

ولم ننتبه أنها مثلنا

ولها فوق أكتافها قمرٌ غير أصغرنا
وهو يسعى ليقطفَ نجماً تعلقَ في سقفِ ليلتنا
صدفةً

ولها غيرُ هذي الهمومِ التي كسرتُ قامةَ السُّروِ فيها
وأحنتُ رؤوسَ الجبالِ
ولها امرأةٌ
بين أضلاعِها

ولها غيرُ هذي العذاباتِ حالُ

ولم ننتبه أنها مثلنا

ولها من طلوعِ النهارِ صباحُ

.. لها وحدَها

غيرِ إعدادِ خبزِ (الفُطورِ) وعَلْفِ الدجاجِ

واطلاقِ سربِ الحمامِ

وَأَلْفِ يَمِينٍ لَتُقِنِعَنَا أَنَّ ثَمَّةَ شَمْساً هُنَا فِي الظَّلَامِ!

وَأَنَّ اللَّيَالِيَ بَعْضُ غَمَامٍ

ولم ننتبه أنها مثلنا

ولها جارةٌ وتُحدِّثُها

عن أيينا .. وتساءلها
: هل كبرت كثيراً
لينظرَ لامرأةٍ ثانيةً
ومساءً خميسٍ بعيدٍ على شرفةٍ عاليةٍ
هل ييستُ كنهراً
وهل .. !!؟
ثم تضحكُ حين ستسمع جارتها
: أنتِ ما زلتِ كالوردةِ الصافيةِ!!

ولم ننتبه أنها مثلنا

وتذوبُ .. وتشتاقُ

تضحكُ .. تبكي

ولسنا السببُ !

في نزولِ السَّلامِ على وجهها
وانطفاءِ التَّعبِ
وتورُّدِ وجنتِها ذاتَ صُبحِ
كنهرِ ذهبِ
وتفتُّحِ عشرينَ أغنيةً في مدى صوتِها
من سهولِ (جَنِينَ) لبرِّ (حَلَبِ) !!

كبرنا كثيراً
ولم ننتبه أنها مثلنا
كبرنا كثيراً
ولم ننتبه !!

في حديثي عن خوفها

.. وعلمها الخوفُ نصفَ الكلامِ

ونصفَ المنامِ

وخفةَ صيدِ الصقورِ

وألفةَ ريشِ الحمامِ

وعلمها الخوفُ نصفَ المُقامِ

ونصفَ الرحيلِ

وعلمها خطواتِ الطيورِ

الرّضا بالقليل
وعلمها أن تعودَ إلى روحها
ويديها وحكمتها
وإلى قطراتٍ من الضوءِ في لون حنطتها
وإلى ياسمينٍ على عتباتِ البيوتِ يصيحُ بياضاً
ورائحةً باسمِها
واختيارَ الرفيقةِ
قبلَ السبيلِ

وعلمها اسمنا في المخافرِ
صرختنا واقتلاعَ الأظافرِ
ضحكتنا من ثقبِ اللحافِ
وتلويحنا لدماءِ المسافرِ

وعلمها الخوفُ شكلَ الزهورِ وراءَ الجنازةِ
أحلامَ زيتونةٍ زُرعتُ في ترابِ المقابرِ
عصفورةٌ سقطتُ في الشُّباكِ
وحبةٌ قمحٍ بمنقارِ طائرٍ

وعلمها الخوفُ كلَّ الحنينِ
الليالي البعيدةَ بين جدائلِ عكا القديمةِ
ترويدةً في سهولِ الجليلِ ومرجِ ابنِ عامرٍ

وعلمها وصفةَ الصبحِ
ما بينَ خيطِ السَّوادِ وخيطِ البياضِ
وأغنيةً تتهجى خطاها إلى الرقصِ
خارجَ هذي الحظائرِ

وعلمها أن تعيشَ على أُهْبَةِ كالرياحِ

وأن

تتنزَّلَ

مثلَ

المطرِ

على كلِّ أرضٍ تمرُّ عليها

وأن تفهمَ العشبَ

قبلَ الشجرِ

في حديثها عن حقلهما

التينُ والزيتونُ
والسروُ الدوالي
المرِيَمِيَّةُ في ظلال البرتقالِ
وريحَةُ الليمونِ
فوحُ الياسمينَةِ في الليالي
اللوزةُ الخضراءُ
والرمانَةُ العنَّابُ
والمشمشُ والصَّبِيرُ
صفصافُ المواجهِ في الأعالي

الْحَوْرُ وَالرِيحَانُ

.. رَوْحُكَ

وَالْبَدَنُ

هَذَا كُلُّ شَيْءٍ هَهُنَا فِي حَقْلِ مَنْفَانَا تَمَاماً

مِثْلَمَا فِي أَرْضِنَا الْأُولَى ..

وَلَمْ يَدْرُ الزَّمَنُ

لِنَحُسَّ نِصْفَ دَقِيقَةٍ

أَنَّ الْمَنَافِي كَالوَطَنِ

في حديثها عن أبي

- ١ -

كلما حدثني عنه
اكتشفتُ بلاداً بعيدةً
لم أكن قمحها ذات يومٍ
ولم أطوها في قصيدةٍ !!

كلما حدثني عن شمسهِ
عن عصفيرٍ تحفُّقُ في إسمهِ
وعن رحمةِ الله تجري كما النهرِ في دمهِ

كلما حدثتني عن خوفه كجناح علينا
وعن حلمه بصباح أليفٍ تناثر ،
ندعوه ، يأتي ، كما الطير سعيًا إلينا

كلما حدثتني عن شجرٍ يتدفقُ كالماءِ
في كلماته

وعن صوته

وشموخِ صلاته

وعن زهوهِ آخرِ العمرِ سرًا

بأقمارِ أبنائه وبناته

كلما حدثتني عن ذلك البحرِ في صدره

وعن عِزَّةِ النَّخلِ في فقره

وعن حلمه بثلاثينَ حرفًا يُرتَّبُها

كي يسطرَ أسماءنا مثلَ طفلٍ بدفتره
خلتُ أن أبي كانَ يكتبُ شعراً
ولسنا سوى بعضِ أشعاره

٢ - ..

: لن تُدركَ البنتُ يوماً

أباها

ولن يفهمَ الإبنُ يوماً

أباهُ

هذه سُنَّةُ الله في خلقه علّمتني الحياةُ

في حديثها عن سهراتهما

كلُّ شمسٍ لها مغربٌ
في البعيدِ
ولي فيكَ مثلَ الذي فيَّ .. مَشْرِقُ
ولكننا بينَ أبنائنا
وضيوفِ مساءاتنا
والأقاربِ
عشنا هوانا
كأنَّا وحقَّ عيونكَ نَسْرِقُ
على شاشةِ التلفزيونِ

تهمسُ بنتٌ لصاحبها
: كم أُحِبُّكَ
وفي الأغنياتِ
تعيدُ مغنيةٌ ولدتُ منذُ يومين!!
: إني أُحِبُّكَ ، إني أُحِبُّكَ
وتهمسُ امرأةٌ هدها العمرُ
في أيِّ مقهىٍ لمن معها
: سأحِبُّكَ دوماً لأنني أُحِبُّكَ
ولكنني لم أُقلها - ولو مرةً - مثلهم
كأنَّ الذي ملءَ قلبي من الحبِّ أضحى لهم
وأني أُجيبُ حُبَّكَ في عمتي
كي يَروا ، يا حبيبي ، في الليلِ أقمارهم
هنا في المسلسلِ بعد العشاءِ
هنا في الأغاني التي تتقاذفُ فيها النساءُ بلا سببِ

وهنا كي نَتابعَ أَفلامَهُمْ
ولأهمسَ للقلبِ مثلكَ في السرِّ والروحِ تَخْفِقُ
: كلُّ شمسٍ لها مغربٌ
في البعيدِ
ولي فيكَ مثلَ الذي فيَّ .. مَشْرِقُ
ولكننا بينَ أبنائنا
وضيوفِ مساءاتنا
والأقاربِ
عشنا هوانا
كأنَّا وحقَّ عيونِكَ نَسْرِقُ

في حديثها عن حديثهما

وأفهمُ صمتكَ
وجَهَكَ
أفهمُ كفيكَ
خطوكَ حينَ تغيبُ
وخطوكَ حينَ تعودُ
وأفهمُ جرحَ الطيورِ
ووقعَ الحنينِ بصوتِكَ
أفهمُ صدري الذي يتفَلَّتُ من زهرِ ثوبي
ومني

وأفهمُ نظرةَ عينيكَ

ناركَ

حزنكَ حينَ يجيءُ المساءُ

وأتبعُ في الفجرِ ضوءَ صلاتيكَ حتى السماءُ

وأعرفُ ما لم تقله لنا

واضحاً كنتَ لي دائماً

هكذا

مثلَ جرعةِ ماءٍ

كبرنا قليلاً هنا أو كثيراً

ولكننا لم نزلْ نترقبُ

من نصفِ قرنٍ ذهابَ الكواكبِ للنومِ

كي ينقضي الأربعاءُ !!

وعودةَ أبنائنا لبيهمُ

لنخلوَ بالشمسِ بعدَ العشاءِ

وقولَ كلامٍ نسيناهُ ما بين هِجْرَاتِنَا
وكلامٍ طواهُ بنا الخوفُ ذاتِ دمٍ
أو طواهُ الحَيَاءُ

كبرنا كثيراً هنا كالظلالِ
وقلنا كلاماً قليلاً يطولُ
.. تعبنا أجلُ

مثل كلِّ الأغاني الحزينةِ من حزنِها
وهي تعبرُ ليلَ الحقولِ
ولكنُ

هنا في الأقصي البعيدةِ
في روحنا
ظلاً من روحنا
ما يُذكّرُ غُرْبَتَنَا بالخِيولِ

في حديثها عن حلمها

قال لي

: لا تنامي

كأنَّ الحياةَ هنا كُلُّها الآنَ

تعبُرُ يا امرأتِي من أمامِي

ذهبتُ إلى السوقِ هذا الصِّباحَ

كما تعرفينَ

ولكنني قد رأيتُ الذي عشتَه طولَ عمري

غريباً عليَّ

الوجوه .. الخضارُ
الخرافُ الصغيرةُ
والبرتقالُ
ووجهُ الصبيِّ
وما بين أسلاكِ أقفاسِهِ من دَمٍ وحمَامٍ !!

رأيتُ الشوارعَ غيرَ الشوارعِ !
كنتُ وحيداً
وبي بعضُ خوفٍ
فألقيتُ حيثُ التفتُّ سلامي
.. على ربطةِ الخبزِ بين يدي طفلةٍ
وعلى امرأةٍ
كلما أمسكتُ يدها طرفَ ثوبِ صغيرتها
ضيّعتُ ولدينِ وبنتينِ

وسَطَ الزَّحَامِ
وعلى جَدَّةِ بثيابِ الحِدادِ
تبيعُ الشموعَ
ولا يشتري أحدٌ
فكأنَّ الظلامَ انتهى ههنا
ورعاهُ الظَّلامِ

قال لي
: لا تنامي

تحسستُ جسميَ هذا الصِّباحَ
فأحسستُ أنيَ بعضُ سماءِ
يَدَايَ غمامَ
وصدريَ غمامَ

ووجهي
وخَفَقَةُ رُوحِي
.. عظامي
وصوتي
وحُلْمِي
ووقعُ كلامي
وحين رجعتُ إلى بيتنا
- لم أصلُ بعدُ -
كانت سهامٌ تهبُّ وتعبرنِي
ورأيتُ سهاماً هنالك يا امرأتِي في السَّهامِ
كأنَّ الضبابَ هنا منزلي
والرياحُ مُقامي
ولكنني نمتُ قبلَ وصولي إليكِ
ولا شيءَ أخشاهُ كالنومِ

لا يَحُلُمُ النَّائِمُونَ بِأَشْبَاهِهِمْ

لا تنامي

لَأَحْلُمَ فِيكَ هُنَا ثُمَّ أَحْلُمُ

إِنْ لَمْ يَكُنْ ضَوْءُ عَيْنِكَ فِي الْحُلْمِ

يفسدُ مثل الصلاةِ

ومثل الوضوءِ

ومثل الصيامِ منامي

فأرجوكِ يا امرأتي

: لا تنامي

في حديثنا حول مشاغل الأمهات

.. وبمن سوف يولدُ
تنشغلُ الأمهاتُ هنا
وبمن ماتَ أو سيموتُ ،
بمن غادرَ البيتَ ذاتَ مساءٍ
ولكنّه لم يعدْ بعدُ
ثانيةً فبكتُهُ البيوتُ

وتنشغلُ الأمهاتُ بمن سوف يمضي إلى الحربِ
نصفَ فتىً

لن يقلنَ له أنتَ أصغرُ من أن تكونَ هناكَ
وأكبرُ من أن تظللَ هنا

كلُّ نارٍ تَحيءُ
ستقتاتُ من عشبِ أكبادهنَّ وَاكبادِنَا
فيجمَعنَ أشلاءنا خلسةً
ويخطنَ فراشاتِ أرواحنا..

.. ثمَّ تنشغلُ الأمهاتُ هنا
بمرورِ الجنودِ على العتباتِ
فيحصينَ ما قد تبقى لهنَّ من الأنبياء الصغارِ
ويحصينَ ما تركتهُ الحروبُ
من الماءِ والشايِ والأرغفةِ!!!
ويرقبنَ قاماتِ أبنائهنَّ تطولُ ضحىً

والأيادي على مهج خائفة

ثمّ تنشغلُ الأمهاتُ بنا
كلّما

طرقتُ في المساء أيادي العساكرِ أبوابنا
أو أيادي الضيوفِ ،
ويحسّن بين أصابعهنّ النحيلةَ عنّا
ويحترنَ في الفرقِ بين الدوالي وبين القطوفِ ،

.. وتنشغلُ الأمهاتُ هنا
برحيلِ أخٍ لصحارى الجنوبِ ،
وموتِ أبٍ هكذا دونَ معنى
هنا
وهنا

وهنالك

في كرنفال الحروب ؛

وتنشغلُ الأمهاتُ بعنوانِ قابليةِ واسمِها
قبلَ ميلادِ أحفادهنَّ بعام ،
وينسينَ ما شئنَ من خوفهنَّ
علينا لكي لا يفرَّ الغمام ؛

وتنشغلُ الأمهاتُ هنا
بطريقٍ يؤدي لبيروتَ ليلاً
وآخرَ يلقي بنا للرياح
وبرَّ الشام ؛

وتنشغلُ الأمهاتُ هنا خائفاتٍ

بنصفِ الكلامِ ..

... ..

أين يمضي النهارُ بهنَّ

ولا شيءَ

غير زحامِ دَمٍ في الزَّحامِ ،

وغير الفروقِ الهزيلةِ ما بين

شكلِ الغرابِ

وإسمِ الحمامِ !!

في حديثها عن حنينها

أُخْبِيءُ أَيامَ عَمْرِي هُنَا

وَاحِدًا

وَاحِدًا

كَيْ أُطَلَّ عَلَى قَمَرٍ تَحْتَهُ طِفْلَةٌ كَالْقَمَرِ

تَسَافِرُ حَافِيَةً فِي اللَّيَالِي

لِتَغْسَلَ وَجْهَ التَّرَابِ

وَتُؤَنَسَ رُوحَ الشَّجَرِ

وَتَعْبُرَ عَشْرِينَ حُلْمًا لَتَبْلُغَ وَرْدَ صِبَاهَا

وَتَفْتَحَ فِي الرِّيحِ دَرْبًا

وفي الأغنيات مَمَرٌ

أُحْبِيءُ أَيَّامَ عَمْرِي
لَأَرْجِعَ ثَانِيَةً لَجَرَارِ مِيَاهِي
وَوَقَعَ خَطَايَا عَلَى بَيْدْرِ الْقَمَحِ
أَنْتَى تَوَجَّهْتُ وَجْهًا لِرَبِّي
وَأَنْتَى رَكَعْتُ هُنَالِكَ سَجَادَةً لَصَلَاتِي
وَأَنْتَى مَضَى الدَّرْبُ بِي
سَيُعِيدُ الْمَدَى خَطَوَاتِي

أُحْبِيءُ أَيَّامَ عَمْرِي
لَأُخْفِي مَرُورَ الْمَنَافِي عَلَى قَسَمَاتِي
فَإِنْ مَرَّ مَوْتُ
مَضَى فِي سَبِيلِ نَهَايَاتِهِ

لا دمي فوق كفيّ يخبو
ولا جسدي فيه يطفو
ولا تلتقي بامتداداتِ عتمتهِ طُرقاتي

أحبيّ أيامَ عمري
هنا في عيونِ بناتي وأبنائي النائمينَ
عصافيرَ فوقِ قرونِ المَهابةِ
وأطوي ظلامي الذي شُفْتُه
والدماءَ التي تملأُ الذكرياتِ
لأحيا حياتي
كأنْ لم أمتُ مرةً مرتينِ
ثلاثينَ خمسينَ
يا سندي
ههنا في حياتي !!

في عتابها له

: لماذا سترحلُّ؟

قالت له

حولنا الآن أولادنا .. عشرة "

حولنا الآن أبناؤهم

.. ضحكهم

حولنا الآن منفيّ

نُعَلِّمُهُ

منذُ خمسينَ عاماً طقوسَ التواضعِ

حينَ يمرونَ في أرضِهِ

أو يمرُّ بهم
إن مضوا للظلام
وإن أشرقتْ شمسُهُم
فلماذا سترحلُّ؟
قد جاءنا ألفُ موتٍ
صبرنا

كسرنا دروبَ الرصاصِ الذي هبَّ نحو براءتهم
بالعيونِ

إلى أن تفتَّحَ نوارُهُم
وظللَ روحي وروحك - يا سندي - نخلُهُم
فلماذا سترحلُّ

قالتْ لهُ

بيتنا واسعٌ !!

وعلى السطحِ شمسٌ شتائيةٌ

لم ينل ضوءها أيُّ عَتمٍ
وترتاحُ دافئةً قربنا في الفِناءِ

لماذا سترحلُ
خمسينَ عاماً غسَلتَ لها وجهها بيدك
وعَلَّمْتَهَا أن بيتك بيتٌ لها
إذ يضيقُ عليها الفضاءُ
أين أمضي بها حين تأتي إليَّ
سيقتلنا برُدُّ هذا العراءِ
لماذا سترحلُ ؟

جيءَ بنا كي نموتَ هنا
ولكننا - أنتَ تعرفُ - عِشْنَا
وفي كلِّ بيتٍ بنينا البيوتَ التي خَلَفْنَا
وأطعنا الحنينَ

الذي في الليالي الطويلةِ فاضَ ليحملنا

لمنازلنا في أعالي التلالِ وفي دمننا

فلماذا سترحل !!؟

ها كلُّ أولادنا ههنا

أنتَ رببتهم مثلَ زيتونةٍ

وانخيتَ عليهم سهولاً من القمحِ

أطعمتهم بيديك

وعلمتهم قلبهم .. صوتهم

وعلمتهم أن يُحبّوا كثيراً

والأ يضيّعهم جريهم

خلفَ صمتٍ وقوتٍ

لماذا سترحلُ

مثلك يا سندي لا يموتُ

في حديثها عن غيمتها

وضعتُ سماءك تحت ثيابي
لأخفي نجومك عن أعين الناسِ
عن شرفات البيوتِ
وعن برْدِ آخر ليلي ..
عن وحدتي في الحديثِ الخجولِ
الذي يتجمّعُ مثل الدموعِ صباحاً على شفتي
كلّما لوّحتُ من بعيدٍ
أو اقتربتُ جارتني

وضعتُ ملامحَ وجهكَ تحتَ ثيابي
لأوقفَ عزلةَ قلبي التي فضحتُ مقلتي
وكم صرتُ أخشى السلامَ على الناسِ
تهتُّرُ كفي حينَ أُسلمُ
تهتُّرُ في خطوتي وجهتي

... ..

قطعتُ هنا قربَ بيتي بعد المساءِ
رصيفاً وصَفِّي منازلَ
لكنتني في طريقِ الرجوعِ
أضعتُ الطريقَ إلى غرفتي
السَّهلُ أحمرُ كالجمرِ
أعرفُ
لم يأتنا مطرٌ منذ عامينِ
من دونِ عشبِ

هنا تتعثرُ رُوحِي

وتُهوي

إلى القاعِ

- يا سندي -

جبهتي

عقدتُ سماءكَ تحتَ ثيابي

ونجأتُ في جوفها غيمتي ..

في حديثي عنها ٢

أَنْ تَكُونَ ابْنَهَا
ذَاكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ
فَلَا بَلَغَ الْحَدَّ يَوْمًا هُنَا سَيِّدٌ أَوْ أَمِيرٌ

أَنْ تَكُونَ ابْنَهَا
أَنْ تَطِيرَ مَعَ الطَّيْرِ فِي أَفْقِهِ
مَعَ سَحَابِ الْفَرَّاشِ إِلَى ضَوْئِهِ
وَأَنْ تُمَسِكَ التَّلَّ مِنْ يَدِهِ
وَتَعْلَمَهُ كَيْفَ يَصْعَدُ تِلْكَ الْجِبَالَ هُنَاكَ

وكيف يسيرُ
وأن تنزوي بالحجارة خمسَ دقائقَ
في أيِّ أرضٍ
وتقنعها أن تطيرُ

أن تكون ابنها ..
أن تكون بسيطاً كجرعة ماءٍ
ومثل التَّحِيَةِ خضراءٍ تخرجُ من قلبِ جارٍ
لجارتِهِ في الصباحِ وتغمرُها بالبهاءِ
وأن تنحني مثلَ أمٍّ على حُلْمٍ قد تكسَّرَ
ترفعُهُ عالياً للسماءِ

أن تكون ابنها
أن تمرَّ على الأرضِ طيفاً يُهددُ عشاقها

ورياحاً تُبددُ كلَّ خَواءِ
أنَّ تحبُّ الصديقَ
وتُخفِضُ هذا الجناحَ رقيقاً لكلِّ النساءِ
وأنَّ تتجمَّعَ في حبةِ القمحِ مثلَ الرغيفِ
وشوقِ الوليفِ لذاكِ الوليفِ
وفي كلِّ عينٍ تَرِقُّ لمشهدِ عُرْسِ
وتُخفي أساها وسرَّ البكاءِ

أن تكون ابنها
أن تعيشَ كأغنيةٍ في الشِّفاهِ
وأمنيةٍ في القلوبِ
وأن تحملَ الفجرَ في جرَّةِ الماءِ
كلَّ صباحِ
وتمضي به لصقيعِ الشِّمالِ

وحزنِ الجنوبِ
أن تظللَّ على حبِّ هذي البلادِ
وإن تابَ غيرُكُ ألاَّ تتوبُ

أن تكونَ ابنها
ليس ذلكَ صعباً على أيِّ طائرٍ
أن تكونَ ابنها
أن تكونَ حصاناً
وليس هنا - بالضرورة - شاعرٌ !!

في حديثها عن نفسها

يرحلُ الناسُ بعد قليلٍ فأنهضُ
كي أنحني لأنظفَ آثارَ أدمعهم بدموعي
وأمسحَ وقعَ العويلِ على درجِ البيتِ
تحتَ الشجرِ

يرحلُ الناسُ بعد قليلٍ فأنهضُ
كي أنزوي بشيَابِكِ
حتى أرتبها
وكأنك أنتَ الذي لم تسافر

قد جاءك الآن كلُّ السَّفَرِ

ليطرقَ بابَكَ ،

بابي الوحيدَ

ويتركني تحتَ هذا المطرِ

يرحلُ الناسُ بعدَ قليلٍ

فأبحثُ عمَّنْ سأسألهُ عن غيابِكْ

وأسألهُ : كيف ترحلُ هذا الرحيلَ الطويلَ

وتتركُ خلفك كلَّ ثيابِكْ ؟

يرحلُ الناسُ بعدَ قليلٍ

ويبقى صغارُكْ

قد كبروا

أحمدُ اللهَ أنهمُ كبروا

لن يجيئوا إلى غرفتي آخرَ الليلِ
كي يسألوا عنكَ
أين مضيتَ؟!
متى ستعودُ؟
وماذا ستحملُ لي ولهم في إيابكُ
أحمدُ اللهَ
لكنني سأقولُ الكثيرَ له في الظلامِ
وأسألهُ ما الذي قد فعلتُ
ليتركني ههنا مثلَ صحراءِ دونِ سحابكُ؟!!

في حديثي عنها ٣

كان للخبزِ طعمٌ ، تقولُ
وكان له قبلَ ذلكَ غيمٌ
وكانت حقولُ
كان لليومِ فجرٌ وكان مساءً
وكانت له زهرةٌ تتفتحُ ،
عبادُ شمسٍ
ونجمٌ يدلُّ الطريقَ إلى بيتنا
ويُعيدُ المواشي لنا والخيولُ
كان للجار جارٌ

وللضيف ناراً
وإذ يلتقي الغرباءُ تجيءُ القرى من بعيدٍ
تفيضُ الحكاياتُ في ظلِّهم
والحديثُ يطولُ
كان للعرسِ بهجتهُ
والأغاني
وللنأيِ وقعُ الندى في المكانِ
وللموتِ
للموتِ حزنٌ عميقٌ
ولا ينقضي هكذا
كالشواني
تغيَّرَ طعمُ الزمانِ هنا في أواخرِ رُوحِي
ولم يبقَ للأخضرِ الآنَ معنى
كأنَّ الذبولَ

هنا في المياه
فلا وصلَ في الوصلِ
أو في الوصولِ
فماذا أقولُ !!؟

في حديثها عن وحدتها

لا أُطيقُ الخروجَ من الدارِ بعدكَ
لا سقْفَ يسترُ قلبي
ولا ماءً يروي مياهي
الحياةُ ستمضي إلى حالِها
وكما كل يومٍ
وأعرفُ ذلكَ
لكن وجهك في البيتِ وجهي
وعينيك صحوي
وضوءُ انتباهي

لا أُطيقُ الخروجَ من الدار بعدك
كفُّكَ

ما زالَ فوقَ جبيني
وإسمُكَ

ما زالَ شمسَ شفاهي
وتعرفُ أنَّ الطريقَ يدورُ ليرجعَ للبيتِ
مهما ابتعدتُ
لأنَّ ظلالَكَ فيه اتجاهي

لا أُطيقُ الخروجَ

من الدار بعدك ..

لكنَّ بيتاً وحيداً

مضيتُ إليه

وطفُتُ بهِ
قلت ألقاك في ظله
بانتظاري
وقد كانَ ذلكَ بيتَ إلهي

في حديثها عن أيامها

من صباح الخميس
إلى ليلة السبت
يمتلئ البيت بالضحكات الصغيرة
يركضون هنا في الممرات
خلف المقاعد يجتبعون ..
يضيئون أنوار بيتك
من دونما سبب في النهار !!
(عليّ) سيلعبُ دَوْرَ الأميرِ أمامي
لأنسى

وتلعبُ (مريمُ) دورَ الأميرةُ

وفي آخرِ الأمرِ لا شيءَ يبقى

سوى

بقع الشاي فوقَ الحَصيرةُ !

... ..

من صباحِ الخميسِ

إلى ليلةِ السبتِ

يجتمعونَ هنا تحتَ أغصانِ داليتِكُ

وينتظرونَ

- كما قبل عامين -

كفكُ يمتدُّ نحوَ يديهم

وحِنيَّةُ اللهِ في لمستِكُ

ويبتكرونَ ثلاثينَ عُذراً

لكي يلعبوا بالترابِ هنالكَ في ساحتِكُ

كَيْفَ لَمْ أَرَوْ عَيْنِيَّ مِنْ نَبْعِ وَجْهِكَ
إِذْ كُنْتَ قُرْبِي

وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ الْيَقِينُ بَأْنِي سَارِحُلُ قَبْلِكَ
يَسْبِقُنِي قَمَرٌ طَيْبٌ مِثْلَ صَوْتِكَ أَوْ ضَحْكِيكَ
كُنْتُ أَدْعُو : إِلَهِي خَذْنِي إِذْنُ قَبْلَهُ

كِي أُسِيرَ إِلَى الْقَبْرِ خَضْرَاءَ
لَكُنِّي الْآنَ أَجْلِسُ وَحْدِي ..
لَأَحْكِي لِقَلْبِي - مِنْذُ رَأَيْتُكَ -
سِيرَةَ قَلْبِي فِي سِيرَتِكَ

... ..

مِنْ لَيْلَةِ السَّبْتِ
حَتَّى صَبَاحِ الْخَمِيسِ
رِيَا حُ سَكُونٍ تَهْبُ
فَأَدْفَعُهَا

كي أظللّ كما شئتَ عاليةً
ويظللّ نخيلُك في قامتي
ويظللّ نخيلي
في قامتيك

في حديثهما معا

- ١ -

لا شيءَ تحتَ الأرضِ غيرِ الأرضِ
يمكنُ أن أقولَ به المدائحُ
الريحُ قاسيةٌ هنا
والصمتُ جارحُ
يأتي النهارُ وليلتهُ فيه ..
الطرائدُ في الجوارحُ
قد كنتُ أبصرُ وجهَ موتي غامضاً
كغموضِ قتلانا هنالكَ في المذابحُ

أقولُ : إِنَّ الموتَ واضحٌ !؟
وكاننا عشناه قبلَ الآنَ منفيَّ أو سعيِّرُ
لا ..

لا تزوري القبرَ أكثرَ من زيارتكِ الأخيرةِ
ههنا موتٌ كثيرُ

لا .. لا تزوري القبرَ
تحتَ الأرضِ لا أُغنيَّةٌ تَعْلُو
ولا طيرٌ يطيرُ

أخفيتُ حُلْمِي فيكَ قبلَ الموتِ
أسمائي وموطننا الصغيرُ
لا ..

لا تزوري القبرَ قد يعتادُ وجهكِ حزنُهُ
ينسلُّ خلفكِ ثم يأوي
بينَ قلبكِ والسريِّرُ

يرتاحُ وجهُكُ مثل دوري^١ على شباكِ بيتي
اللهُ فيه جناحُه وحنينُ أغنيتي لصوتي
يرتاحُ وجهُكُ

فوق صمتِ مخدتي
ليسراً لي عيشي طويلاً
كي أناكِفَ فيكِ مَوْتِي

في حديثها عن نشيدها

... وبسمي .. وبسمك

بسم الترابِ

وبسم الهواءِ الذي يتواردُ مثل العصافيرِ

يأوي أليفاً لأشجارنا

أتجمَعُ كلَّ مساءٍ وأنشدُ أسماءنا

كي أغالبَ ريحاً تهبُّ عليَّ ..

عليك هنا

منذ خمسينَ عاماً وتخطفنا

واحدًا واحدًا

وأسأهر روعي إلى أن ينام المنام
ويتركنا وحدنا
ضوء وجهك
يشرق بي .. وأنا

كل بيت سكناه
في ليل هذي المنافي الطويلة غافلنا
ومضي للبعيد وفي يده بعض أحببنا
لم يعد وجه أمي
ولا وجه جدّي
ولا أنت - ياسندي - بيننا
ولم تكن الأرض في أيّ يوم
هنالك
أضيق من جسمنا

في البعيد - القريب
هنالك بحرٌ ونهرٌ وصحراءُ
مرجٌ بأجنحة الميخنة
ويقودُ خطانا صغاراً
إلى سرِّ أرواحنا
.. في الشتاء الأليفِ يرُدُّ علينا عباءته مثل أجدادنا
وينادي علينا
ويعرفنا
في ظلامِ الكلامِ
وفي بوحنا

في احتراقِ النهارِ على جبهتي
أتجمّع كل مساءً أغالبُ

خمسین عاماً من الموت
مرت على قلبنا
وأدورُ أعددُكم أخذتُ من خيولِ
وكم ذبحتُ من ضنّی
ثم أعجبُ من غرفةٍ وسِعَتنا
ومن لقمةٍ أشبعتُ جيشنا
وأعني : أنا أنتَ أولادنا
ذاتَ يومٍ صعدنا الجبالَ وحيدینِ
لكننا الآن ... !!!
أجلسُ نصفَ معذبةٍ نصفَ فرحانةٍ
كي أعدَّ أصابعَ كفيَّ
أُحصيكَ
أُحصي مدى جسدي في بنيك
وأُحصي بنيك بأحفادنا

في حديثي عنها ٤

حولها واحدٌ وثلاثون نجماً
وأعني حفيداً
وعشرةُ أبناءَ سمرِّ يجبونَ حنطتها
وسماءَ أصابعها الناحلاتُ

حولها صبيّةٌ فارعونَ .. نخيلاً
وجنيّةٌ الطيرِ للطيرِ في ضحكاتِ البناتِ
حولها شجرٌ يترَاكضُ بين النوافذِ والسورِ
لكنّه إذ تطلُّ

يُجِيءُ وَيَمْسَحُ بِالضَّوِّءِ عَتَمَ الْمَرِّ
وَيُخْلِي لِكُوكِبِهَا الْعَتَبَاتُ

مَنْذُ عَامِينَ قَلْنَا سَتَسْأَلُ
عَنْ سَرِّ هَذَا الرَّمَالِ عَلَى كَتْفِهَا
عَنْ الرِّيحِ تَذَرُو مَخْدَتَهَا
وَعَنْ الْمَلْحِ فِي الصَّمْتِ وَالْكَلِمَاتِ

لَا تُفَسِّرُ شَيْئاً
لِكَيْلَا نَرَى فِي الْحُرُوفِ الرُّفَاتِ

فتأكلُ ..

تشربُ ..

تضحكُ

تغفو نهاراً

لتصحو ..

وتصعدُ للسطح عند الغروب

تُلَوِّحُ للشمسِ

تسمعُ صوتَ الأذانِ على درجِ الظُّلماتِ

تلملمُ دمعَها وتعودُ إلى رُكنها لتصلي العشاءَ

تطيلُ الركوعَ ..

تطيلُ السجودَ

تطيلُ الدعاءَ

كأنَّ أبانا - هنا - في الصلاة

في حديثها عن ندرها

إذا كان لي في حياتي نصيبٌ
لأحيا هناك
سأخذُ من أرض منفايَ حُزني عليه
وأخذُ عشبَ أصابعه
وحنينَ يديه
وشمسَ فلسطينَ في قلبه
تتسللُ خضراءَ مثلي إليه

إذا كان لي في حياتي نصيبٌ

سأحملُ أسماءَ الأربعةِ
وأثرُها في سهولِ الجليلِ
وأجري معه
وأعقدُ عُرسِي على ظَهرِ مُهرِ
كما شاءَ يوماً
وأحملُهُ في دمائي صلاةً
وفي الحُلُمِ حلماً
وأهتفُ : عِشْ من جديدِ
وكنْ للحَمَامِ هديلاً
وكنْ للسطوحِ سماءً
وكنْ لاشتياقيَ جسماً
وكنْ لجراريَ نهراً
وكنْ لشفاهيَ طعاماً
وكنْ لي كما كنتَ دوماً

أباً وأخاً ثم أمّاً

إذا كانَ لي في حياتي نصيبٌ
لأحيا هنالكَ يوماً - كروحك - حراً وصافي

سأغفرُ

كلَّ

خطايا المنافي

بِسْمِ الْإِٰبِنِ

أعمدة الهواء

لا تقولُ الحكايةُ أكثرَ من نصفِها

بعد يومين أُولدُ
شمسٌ هنا بانتظاري
ورفٌ عَصافيرَ
أعمدةٌ من هواءِ
وبهوُ فراشِ
جياذٌ على عتبةِ البابِ
سهلٌ فسيحٌ يحاولُ أن يُلغِ النافذةُ

هياجُ نجومٍ يضيءُ المكانَ
فتاةٌ ترتبُ لي خطوتي
وتسوقُ الأغاني إلى لغتي

... ..

بعد يومينٍ لن تجدَ الوالدةُ
قمرًا لتضيءَ به المائدةُ
أو حليباً هنالكَ في صدرها
لا تقول الحكايةُ أكثرَ من نصفها

كبرتُ وجئتُ طويلاً - لخالي -
نسيتُ كلامَ أبي
وأطعتُ طيورَ البراري
وعذبتُ نعناعَ أمي كثيراً
جدائلَ إبنةِ جيراننا

وشبايبك جاري
وخوضتُ في بركِ الطينِ
في لحمِ كلِّ الوصايا التي طاردتني
وقلتُ : لكِ المجدُ يا أيهذي الضواري !!

ولكنني ذاتَ يومٍ هدأتُ
نبياً صغيراً إلى العشبِ عُدتُ
رأيتُ الفتاةَ
وحينِ اختليتُ برمانها
تناسيتُ من يومها كلَّ جسمي في جسمها
لا تقول الحكاية أكثر من نصفها

الأساطيرُ تبدأ من ههنا
عبرتُ من أقاصي الشمالِ

وفي غفلةٍ أوقعتُ شألها
فتدافعَ عشبٌ كثيرٌ ليرفعه

واندفعنا

ولكنها صرختُ : يا رياحُ أعيديه لي
وأسرتُ لنا :

انتظروا ستعودُ الرياحُ به

فانتظرنا

تعبنا

وظلَّ فتىٌ وحدهُ ههنا

قد يكونُ أنا !!

كلُّنا الآن نعرفُ أننا خسرنا

وأن الفتى ربحَ الانتظارَ

وأن الرياحَ أعادتُ لهُ

الفتاةَ

وأسرارَ شالاتِها
لا تقول الحكاية أكثر من نصفها

كلُّنا من ترابٍ
ولا يعرفُ الأنبياءُ عن الشَّعرِ ما يعرفُ النُّخلُ
لا تستهيني بنا يا فتاةُ إذن
لا تشيحي بعيداً بأقمارِ نَحركِ
لا تستهيني
اذكري أن هذي الحكاية مثلك
تبقى تراباً
ونحن فضاءٌ لمعنى صعودك
لا تسألي هل بُعثنا بجبكِ
أم هل قُتِلنا

....

كلُّ أُغْنِيَةٍ بِأَصَابِعِ مُنْشِدِهَا مُعْجَبَةٌ
وَبَسُلْمِهَا !

لا تقول الحكاية أكثر من نصفها

يسقطُ الشهداءُ فرادى

وهم ينشدونَ لأوطانهم

وكانهمو لم يعيشوا الحياةَ !!

ولا لوَحَّتْهُمُ فتاةٌ تردُّ جديلتها

وتردُّ الهواءَ الذي يتشيطانُ

مندفعاً نحوَ ركبتهَا

لا تقول الحكاية أكثر من نصفها

زغردتُ حينَ حدثتْها قلبها

حينَ جاءَ النبأُ

و حين البريقُ الذي عاشَ عينيه
منذُ سنينٍ هناكِ انطفأُ
ودارتُ على النَّائحاتِ ودارتُ
لتختارَ مُهْرَةً
لآخرِ مَرَّةٍ
وترفعُها بشبابِ الحدادِ إلى عُرسِها
لا تقول الحكايةَ أكثرَ من نصفها

سنموتُ هنا
ونموتُ هناكِ
وتجمَعُنا الذكرياتُ
الكثيرُ من الذكرياتِ
لتسعَ الأرضُ في قبرنا
ونُداعِبَ اخوتنا الشهداءَ بخفَّةِ أشلائنا

والحنينِ الخفيِّ لأرواحنا ومجازرنا
ونظاردهمُ كي يقولوا تعبنا
وترتاحَ منا القصائدُ
حتى تموتَ هنالك في ثلجها
لا تقول الحكاية أكثر من نصفها

سنموتُ فرادى فلا تحملي همًّا
سنموتُ كما لم نمتُ
كالبعير !!

سنموتُ فرادى لأنَّ المدى سوف يصبحُ
أجملَ مما تظنينَ
أجملَ من لوزةِ الدارِ
أجملَ من إبنةِ الجارِ
من فرَسِ الشيخِ

تطوي حقولَ الشعيرُ
حين يأتي الحصانُ الذي أشعلته طويلاً
ليصهّلَ في لحمِها
لا تقول الحكاية أكثر من نصفها

إن أتوا ذاتَ ليلٍ لكي يقتلونني ثانيةً
هيئي الشايَ
قولي بأنني انتظرتُ طويلاً
وقولي لهم أنني سأعودُ
لينتظروا عنقي .. رثتي
جبهتي ويديا
فبعدَ قليلٍ سأبعثُ حيّاً
لينتظروا
وكانهمو بعضُ أهلي !!!

وقولي لهم ما تقولي لنا
واتركي النارَ ترقصُ رقصتها
والنوافذَ تغزلُ لوعتها
لا تقول الحكايةَ أكثر من نصفها

لا تقول الحكايةَ شيئاً
لأننا بداياتُها
لا تقول الحكايةَ شيئاً
لأننا نهاياتُها
لا تقول الحكايةَ شيئاً
لأننا حكاياتُها

السَّحَابَةُ

تَبْحَثُ الْأَرْضُ عَنْ شَجَرٍ خَلْفَهَا

دَاخِلِ الرُّوحِ

يَبْحَثُ سَرْبُ سَنُونُو

عَنِ الْجَسَدِ

بَيْنَ سَبْعِ ضَفَافٍ

يَفْتَشُ نَهْرٌ عَنِ الْقَمَحِ فِيهِ

وَفَوْقَ السَّمَاءِ الَّتِي خَلَعَتْ ثَوْبَهَا - الْبَحْرَ

يَبْحَثُ رَمْلٌ عَنِ الْأَبَدِ

جِنَّةٌ تَتَطَايَرُ مِنْ فَرَطِ غَرَبَتِهَا سَحْبًا

والجبالُ هنا تحتها زردِي
في فضاءِ الهواءِ الممزَّقِ تكشِفُ
فاكهةُ الصيفِ عن جسمها
قمرا تائهاً في شحوبِ يدي
وجوارِ أغانيكِ
في عمقِ صوتكِ
يرتاحُ قبرٌ من الدورانِ
ويهربُ ناي إلى كبدي

...

سأفتشُ في كلِّ شيءٍ أراهُ
لعلِّي أرى صدفةً بلدي

الزائر

يتقدمُ فوق رؤوسِ أصابعِهِ

في العتمةِ

أعرفهُ

أنفاساً لاهثةً

تصعدُ طرقاتِ تذوي

ونجوماً تهوي من فرطِ هشاشتها

والوقتُ بلا لون كالماءِ

يتقدمُ خشخشةً في الأبيضِ

لا يبصرها العابرُ
تساقطُ كالدمعِ
وتذوي
دون حروف تُفصحُ عما في زرقتها
والصوتُ بلا لون كالماءِ

يتقدمُ في العثراتِ
وينهضُ
في العثراتِ
كنهر يصعد في الأحلامِ جبلاً من قممِ صحراءِ
والريحُ بلا لون كالماءِ

يُنشدُ أغنيةً لا أذكرُ منها
غيرَ الدمِّ المسفوحِ

على أرصفة الشمع
وذاكرة بيضاء
والصمتُ بلا لون كالماء
يرفعُ قبضته
كي يطرقَ أشلائي الملقاة على عتباتِ البيتِ
فيبصرني فيها
يتراجعُ عشرَ خطيُ خضراءُ
ويهيلُ الضوءَ على مَنْ سَهَرَ الليلةَ فيَّ مِنَ الأحياءِ
من ذاك القادمُ تسألني
من بئرِ براءتها الأشياءُ

الإسمُ !!؟

بلا لون

كالماء

شهيد

مضى كلُّ شيء إلى حاله !
الرجالُ بأرديةِ السبتِ
عمري
النساءُ إلى غربِ تفاحهنَّ
مذاقُ البناتِ الذي عَبَرَ الحُلْمَ أمسِ
النشيدُ الموزَّعُ في الخطواتِ
وكحلُّ الصبايا العميقُ
طيورُ السنونو على شرفاتِ الخريفِ
الرياحُ على عتباتِ الحقولِ

وحزنُ العصافير بعدَ الحصادِ

مضى كلُّ شيءٍ إلى حاله !
قلبُ أمي إلى شوكةٍ ..

والبلادُ

هنا أتلمَّسُ صوتَ الرصاصةِ في الرُّعبِ

روحي التي كسَّرتُ راحتيَّ

وأبكي عليكَ

أتبكي عليَّ

كلُّنا بعدَ موتكَ أحياءُ نرزقُ

قلُّ لي ..

ولو مرةً

يا حبيبي

: أما زلتَ حيٌّ ؟!!!!

العائد

يعودُ المهاجرُ من موتهِ كلَّ يومٍ
إلى ظلِّ حائطه ..

ودروسِ القراءةِ
للظلِّ يجبو ويرتاحُ في هدأةِ الكينيا

يعودُ المهاجرُ من موتهِ
كي يُلمِّمَ أنفاسَهُ من حجارةِ سنسلةِ الدارِ
من قدميِّ الحليبِ
ومن حشرجاتِ الهواءِ

يعرفُ الشجراتِ ..

زوايا البيوتِ القديمةِ

وقَعَ خطي أمه في الفناءِ

حكَاياتِ جدتهِ للعفاريتِ

حتى يناموا

وتقطفَ من أنجمِ الليلِ من بعدِ غفوتهم ما تشاءُ

لم يكن فيه ما يشبه الغرباءَ بشيءٍ

ومرَّ غريباً

ولكن كلَّ الذين رآهم على العتباتِ

هنالكَ

كانوا

همُ الغرباءُ

المقاعد

نهاية ١

المقاعدُ

أضلاعُنا الهاربة

لتُطلَّ على مشهدِ البحرِ عند الغروبِ

يومنا المرُّ عزلتُنا

جرأةُ الحزنِ خلفَ ابتسامتنا

وخروجٌ إلى الناسِ .. يعني الهروبُ

المقاعدُ أُرجلُنا الذائبةُ

في ترابِ الحدائقِ بعد الحروبِ

استراحة

المقاعدُ لا تتذكرُ شيئاً
ولكنها جلستُ مثلنا
ههنا تستريحُ
لتُحصيَ أوراقَ هذا الخريفِ
الخريفِ الفسيحِ
كلّما وصلَ العَدُّ للأربعينِ
أتتُ من جميعِ الجهاتِ وراحتُ
تناكفها وتُخرِبُها الريحُ
المقاعدُ لا تتذكرُ شيئاً
ولكنها جلستُ مثلنا ههنا
تستريح

غرباء

يا لعمتهم

وبلادتهم

وعبوسِ صغيراتهم والنساء

هؤلاء الذين أتوا غرباء

وعادوا إلى بيتهم غرباء

هكذا جلستُ بهدوءٍ تفكرُ

هذي المقاعدُ

بعدَ المساءِ

نهاية ٢

مقاعدُ من حَجَرٍ

في الترابِ

هنا .. من قديمٍ

مقاعد مرَّ عليها ظلامٌ

ومرتُ عصورُ

كم من ملوكٍ .. أباطرةٍ عرَّشوا فوقها

وكان الدوائرَ لا لن تدورُ

مقاعدُ مزهوةٌ بالحريرِ

وغيمِ العطورِ

تحلمُ الآن بالناسِ

تصرخُ ..

تبكي

وتعوي ..

تخورُ

: لو مرةً تُبصرُ الشمسَ

لو تشمُّ زرقَ الطيورِ

فراق

مقعداً في الحديقةِ
والبردُ أسودُ
صمتٌ كثيفٌ هوى من أعالي المكانِ
إلى اللحظةِ الذاهلةِ
كانا هنا .. قبلَ خمسِ دقائقَ
قالا الكثيرَ
ولم يتركا
غيرَ بردِ اليدينِ على صدره
وعويلِ قرنفلةٍ ذابلةٍ

شغب

بعد أن يخرجُ الناسُ من يومها
وفضاءِ الحديقةِ
- وفي الوهمِ وهمٌ يُسمَى الحقيقةُ !! -
ستصحو المقاعدُ
تستلُّ أرجلها اليابسةُ
من شحوبِ الممراتِ تحتَ القمرِ
وتبدأُ فصلاً طويلاً من اللهوِ
يوقظُ في العتمِ ذعرَ الشجرِ
مقلدةً صوتَ من عبروا
صمتهم .. حزنهم
وحكاياتهم
وجهامةً ضحكاتهم

وكان لم تلامس ارواحهم قطرة من مطر
ويمتدُّ ليلٌ
ويمتدُّ ليلٌ
وعند الصباح تعودُ المقاعدُ هاربةً لهدوءِ الحجرِ
: خطرُ
.. خطرُ
ويرى طائرٌ وهو يعلو بعيداً
ببابِ الحديقةِ
بعضَ البشرِ !!

أحزان

ملتصقاً بالطاولة المنسية كانُ
العتمة صمتُ الحائطِ ..
وشحوبُ الأركانِ
جاءوا من أقصى المدنِ المذبوحةِ بالنسيانِ
أكلوا ..
شربوا ..
ضحكوا
واشتبكتُ تحتَ الطاولةِ الغفلى السيقانُ
في حمى النشوةِ كانت تنسكبُ الخمرُ
من كأسِ السيدةِ
فيصرخُ : كم أنا عطشان !
المقعدُ يشربُ خمرتها

المقعدُ يشربُ ضحكتها

المقعدُ يحفن زبدتها

المقعدُ وهو يغافلها

مُنْسَلًا

نحو البوابة .. سكرانُ

يترنحُ في عتمةِ (عَمَّانِ)

حنين أسود

يُشاركهُ الخوفُ
يشاركه طعنةَ الريحِ
كانونَ في أوجِ وحدتِهِ
ويشاركه النارَ في موقدِ الصيفِ !
يشاركه الخيزرانَ (العلامَةَ)
رعبَ السؤالِ
.. وريقاً يجفُّ
يشاركه المللَ المتساقطَ من أحرفِ الدُّرسِ
من خدعةٍ في سهيلِ النشيدِ
ومن جُملةٍ تحتَ رحمةِ حرفٍ !!
الصغيرُ الذي عبدَ اللهَ سبعَ سنينِ
ليدخلهُ المدرسةُ

ليرى البحرَ في (الكُرةِ المُشمِسةُ)
الصغيرُ الذي عذَّبتهُ الرياحُ
وأوتادُ خيمتهِ البائِسةُ
الصغيرُ الذي حُلْمُه مقعدٌ خشبيُّ
هناكَ بزَاويةِ الصَّفِّ
ليغفُو ولو لحظةً كلَّ يومٍ
ويحميه سَقْفُ !

إقامة

مقعدٌ

يتجولُ

في الناسِ

والناسُ في الحافلةُ

سوف يخفقُ مثلي

إذا ما أتتُ

ومن بين كلِّ المقاعدِ جاءتُ

لتسكنهُ امرأةٌ مُذهلةُ

خلدعة

مقعدُ السينما

راحَ يهتفُ - مبتهجاً - للبطلِ

فَرِحاً بأفولِ الظلامِ

فَرِحاً باندحارِ الحديدِ

مِنَ جديدِ

مقعدُ السينما

لو مرةً يبلغُ العتبةُ

ليرى تحتَ شمسِ النهارِ هنا

كم مرةً يذبحونَ الشهيدَ

مكيدة

مقعداً

سوفَ يدعو خطايَ الطليقةَ

أن تستريحُ

ليمشي مكاني

ويعرفَ طعمَ السباقِ مع الريحِ

موت

ستضحكُ

حين نغادرُها

واثقينَ بأنّا اتفقنا ..

المقاعدُ !

وتتبعنا كي ترى صمتنا

في الأسيرةِ

أو حولَ تلك الموائدُ

تحذير

ثمَّ بعضُ المقاعدِ
قد لا تُحبُّ لزوجةَ بعضِ القصائدِ
سبلَ الكلامِ الثقيلِ
انتبهوا

قد تطوَّحُ بالجالسينَ على قلبها
لأقاصي جهنمَ
بعد قليلٍ !!

الكراسي

الكراسي ستلقي بنا للحروب
الكراسي ستغمرنا بالسّلام
الكراسي ستغفرنا كالذنوب
الكراسي - الجحيمُ
الكراسي - الشفاعةُ
الكراسي التي كلّما جدَّ جدُّ
ستهتفُّ موتوا لتحيا الشجاعةُ
الكراسي التي كمُ تُحبُّ الشعوبَ
الشعوبَ - القناعةُ
الكراسي التي
من دمٍ فوقَ دمٍ
الكراسي التي

لا تطيقُ بأن يُورِقَ الآنَ حُلْمُ
الكراسي التي
لم يكن أصلها شجراً
ذاتَ يومٍ

احتمالات

- ١

ربما كان للصمت ألسنة

تتدفق فينا

وتنشرنا كالغسيل البهي

تسمى العنب !!

- ٢

ربما كان هذا التراب المحاصر

في لحمنا .. أفقاً مرمرياً

دعته الطيور كثيراً .. ولكنه لم يُجب

- ٣

ربما كان للنارِ حزنٌ قديمٌ
يُسمَّى الرمادُ
يُعذبُها بانطفاءِنا
ثم يتركُها هكذا
تنتحبُ

- ٤

ربما كان للماءِ توقُّ إلى النارِ
فاخترعَ الموجَ
قد يُصبحُ الموجُ
يوماً .. لهبُ

- ٥

ربما كان للحبِّ قامتهُ
في براءةِ أجسادنا

واختلاطِ الفصولِ وأعضائنا
وظلالٌ تشدُّ لنا أذنانا
ثم تحنو .. وتحنو
وتُدعى العتبُ ..

- ٦ -

ربما كان للبحر حلمٌ بأن يسكن البحرَ
أو قربَه
هكذا مثلنا
هكذا
ويُحِبُّ

- ٧ -

ربما كان في خطونا سفرٌ
نحو أسرارنا من قديمٍ
ولكننا لم نصِلْها .. لأنَّ الطريقَ تعبٌ !!

- ٨

ربما كنتُ أدركُ كلَّ الحكايةِ

لكنني ..

كي أُحِبُّ الحكايةَ أكثرَ

ها انني أحتجِبُ !

الحفل

زهورٌ

وحشدٌ أغانٍ

نشيْدٌ

وذاكرةٌ من زمانٍ قديمٍ

وشمسٌ ضحى السبتِ مكتملةٌ

يتيمٌ تأخرَ

أرملةٌ

تتقدمُ سائدةً أرملةٌ

المُغني

وَآيٍ مِنَ الذُّكْرِ
نَايٍ
عَلَى طَرَفِ الْقَرْيَةِ الْمَهْمَلَةِ
جَنُودٌ قُدَامِي
مَعَارِكُ
أَزْمَنَةٌ خَاسِرَةٌ
ثَلَاثُونَ حَرْبًا عَلَى الضَّوِّءِ مَعْلَنَةٌ
وَتَلَاثُونَ مِثْلُ الثَّلَاثِينَ فِي غَمْدِهَا مُضْمَرَةٌ
صَغَارٌ بِأَلْبَسَةِ الْعِيدِ
خَيْلٌ
بِيَهْجَةٍ فَرَسَانِهَا عَامِرَةٌ
مُوكَبٌ قَادِمٌ مِنْ بَعِيدِ
زَغَارِيدُ مَرْفُوعَةٌ لِلسَّمَاءِ
هِيَاجٌ

رجالاً من الظلماتِ أطلّوا
ومن صحفِ الأُمسِ والمحيرةِ
كلهم أقبلوا
التقطوا صوراً
لعنوا آخرَ العمرِ والذاكرةِ
شربوا كأسَ حلْمٍ قثيلٍ هنا
قبل أن يتقدم أكبرهم
ليقصَ شريطَ الحريرِ
ويفتحَ المقبرةِ

الدليل

تخرجُ الروحُ من طينها نحوَ أرضٍ
هي الروحُ والطينُ
والشمسُ في شرفات الأصيلِ
ظلُّها شجرٌ فارغٌ يستغيثُ
وخطوتُها مهرةٌ تتفلتُ
من كبوةٍ .. وهلالٍ قتيلِ

... ..

صحراءُ

... ..

كانت بحارُ الرمالِ إلى الشرقِ منقوعةً بالسرابِ
إلى الغربِ ذائبةً في الرياحِ
بحشنا عن النجمِ
لكنهُ راحَ يسألنا شاحباً عن سبيلِ

... ..

سبعةً .. وثلاثُ نساءٍ وطفلٌ
ولا شيء في اليدِ إلاَّ القليلُ
قالَ : من ههنا ...

فمشينا على هَدْيِهِ
قالَ : جُعْتُ ..

بسَطْنَا لَهُ زادنا فاستراحَ
وكنا هنالكَ من حوله غابةً من نخيلِ

... ..

تخبِزُ الرياحُ أنجمها في الظهيرةِ

والأرضُ من تحتنا تترمدُ
والشمسُ من فوقنا تتقلبُ في نارها
واللهيبُ نِصالُ خرافيةُ
جمرها معدنٌ ذائبٌ في الصَّليلِ

... ..

سنةُ أورك العشبُ في لحمنا
.. انطفأ العشبُ
أينع حُلْمٌ ..
وضلَّ سهيلُ
ولا حجراً مهملًا كي نَقِيلُ

... ..

خذي قامتي واستريحي قليلاً
أنا طَلَلٌ في هوائِكِ يسيلُ

... ..

ولم يكُ فينا الذي يتهاوى
ويكي لأنَّ الطريقَ طويلُ

... ..

كانَ يُنشِدُ مشتعلًا في الظلامِ :
أنا من يُقلِّبُ هذي البراري كراحتهِ
ثمَ يمتدُّ للنجمِ يستلُّه من فضاءاتهِ
يمسحُ الليلَ عن وجهه ويغني له
: يا جميلُ

... ..

وسرنا على هديهِ
قالَ : جعتُ
اختَلَيْنَا بأرواحنا ..
فذبَحْنَا له واحداً
ستةً ..

وثلاثُ نساءٍ ..

وطفلٌ ..

ويومٌ عويلٌ

ليلةٌ .. ليلتانِ

هوى

قالَ : جعتُ

ذبحنا له امرأةً

قالَ : جعتُ

وحدَّقَ في الطفلِ

: أَكُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْسُدَ الطَّيْنُ فِيهِ وَيَكْبُرَ

طفلاً هزِيلُ

وسرنا على هديه

... ..

لم يكنْ قد تَبَقَّى سوى اثنينِ

قال سأبقي عليك لتتبعني
ولتشهد أني وصلت
وأنني اختتمت الرحيل ..
وسرنا ..

ولكنه قال : جعت
استدار إلى جثتي هائجاً
عبر ظلي النحيل

... ..

هكذا

لم يصل أحد آخر الأمر
غير

الدليل .

قصائد الديوان

١ - بسم الأم

٧١	في حديثها عن سهراتهما	٩	في حديثها عن عرسها
٧٤	في حديثها عن حديثهما	١٢	في حديثها عن يومها
٧٧	في حديثها عن حلمها	١٥	في حديثها عن غربتها
٨٢	في.. مشاغل الأمهات	١٩	في حديثي عن أمثالها
٨٧	في حديثها عن حنينها	٢٣	في حديثها عن دمنا
٩٠	في عتابها له	٢٦	في حديثها عن حلمه
٩٤	في حديثها عن غيبتها	٢٩	في حديثها عن غيابه
٩٧	في حديثي عنها ٢	٣٣	في حديثها عن أبيها
١٠١	في حديثها عن نفسها	٣٨	في حديثها عن حبها
١٠٤	في حديثي عنها ٣	٤١	في حديثي عن غرفتها
١٠٧	في حديثها عن وحدتها	٤٤	في حديثها مع زوجها
١١٠	في حديثها عن أيامها	٤٨	في حديثها عن وداعه صباحاً
١١٤	في حديثهما معاً	٥٢	في حديثها عن انتظاره مساء
١١٧	في حديثها عن نشيدها	٥٦	في حديثي عنها ١
١٢١	في حديثي عنها ٤	٦٢	في حديثي عن خوفها
١٢٤	في حديثها عن ندرها	٦٦	في حديثها عن حقلهما
		٦٨	في حديثها عن أبي

٢ - بسم الإبن

١٥٦	أحزان	١٢٩	أعمدة الهواء
١٥٨	حنين أسود	١٣٩	السحابة
١٦٠	إقامة	١٤١	الزائر
١٦١	خدعة	١٤٤	شهيد
١٦٢	مكيدة	١٤٦	العائد
١٦٣	موت		المقاعد :
١٦٤	تحذير	١٤٨	نهاية ١
١٦٥	الكراسي	١٤٩	استراحة
١٦٧	احتمالات	١٥٠	غرباء
١٧١	الحفل	١٥١	نهاية ٢
١٧٤	الدليل	١٥٣	فراق
		١٥٤	شغب

أعمال إبراهيم نصرالله

• الشعر (الطبعات الأولى)

- الخيول على مشارف المدينة 80 ط 2 • المطر في الداخل 82 ط
- الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق 84 ط 5 • نعمان يسترد لونه 84 ط 2 • أناشيد الصباح 84 ط 2 • الفتى النهر والجنرال 87 ط 2 • عواصف القلب 89 ط 3 • حطب أخضر 91 ط
- فضيحة الثعلب 93 ط 2 • الأعمال الشعرية - مجلد 2
- 94 • شرفات الخريف 96 • كتاب الموت والموتى 97
- بسم الأم والإبن 99 .

• الروايات (الطبعات الأولى)

- براري الحمى 85 ط 3 • سردية : الأمواج البرية 88 ط 5 • عَوْرُ 90 ط 2 • مجرد 2 فقط 92 ط 2 • طيور الخذر 96 • حارس المدينة الضائعة 98 .
- كتاب يرسمون - معرض مشترك لثلاثة كتّاب 93 .
- مشاهد من سيرة عين - معرض فوتوغرافي، دارة الفنون 95
- ترجمت براري الحمى إلى الإنجليزية، والحوار الأخير إلى الألمانية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الروسية، البولندية، التركية، الفرنسية .
- نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:
- جائزة عرار للشعر 91
- جائزة تيسير سبول للرواية 94
- جائزة سلطان العويس للشعر العربي 97

إبراهيم نصرالله

من أعماله الشعرية

الخيل على مشارف المدينة

المطر في الداخل

الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق

نعمان يسترد لونه

الفتى النهر والجنرال

عواصف القلب 3 أجزاء

الأعمال الشعرية - مجلد

من أعماله الروائية

براري الحُمى

عَوْر

بمجرد 2 فقط

طيور الحذر

حارس المدينة الضائعة

نال سبع جوائز من بينها:

جائزة عرار الأدبية للشعر 91

جائزة تيسير سبول للرواية 94

جائزة سلطان العويس للشعر العربي 97



بسم الأثر والابن

إن أول ما يلفت النظر جذريا في قصائد إبراهيم نصر الله أنه قادر منذ البداية على خلق حقائق شعرية جديدة، على صنع متخيل لا يراعى نظيره إطلاقا في قصيدة سابقة عليه.. وهو بذلك يرد لنا كثيرا من الثقة من أن شعراءنا اليوم لا يسلكون دروبا إبداعية مسدودة، تضيق من فضاء الشعر، وتحد من مقروئته، لأنه قادر بامتلاكه لطاقة تجريبية هائلة، على خلق أشكال فنية وعوالم موضوعية تجسد حيوات خارجية لأصوات متشابهة مفعمة بالرغبات المتضاربة والأمل المقموع..

بصيرته مؤلفة من عدة أطراف، حيث يتألف الخيط الواصل بين كل أعمال إبراهيم نصر الله من نسيج متماسك لحمته الموقف الوجودي للإنسان الفلسطيني والعربي بكل تفاصيله ومنحنياته، ويتألف من التواصل العميق مع ايقاعات الحياة الثقافية العربية والإمتصاص الوئيد لعناصرها الإبداعية والفكرية وتجاوزها في الآن ذاته؛ لا يمكن لقصيدة يكتبها مثل هذا الشاعر الآن أن تكتب منذ عشرين عاما، لأنها تستوعب كل المنجز الجمالي الذي حدث في الأعوام العشرين الماضية.

.. ومثلما يحدث مع كبار الشعراء، استطاع إبراهيم نصر الله إبداعياً، أن يخترق صفوف أبناء جيله، وأن يحرق مسافات النمو الجمالي والتقني، وأن يقف في الصف الأول مع كبار الشعراء.

في هذه الأرض المبدعة الخلاقة لقصائده، التي تمثل إنجازاً نوعياً، تؤكد تجربته أن بإمكان الشاعر أن يجدد كثيراً ويظل شاعراً موصولاً بجملة المنجزات الجمالية للفنون كلها.

الدكتور صلاح فضل

